يغزل لك كساءً من هذه الحكاية، أو يقيم مها مبنى له منطق ومعمار. جدك ضائع يا بنت، نقض الوزر ظهره وأقعده. ستقول البنت. . . ، لا لن تفصح فهي حيّة تراعيني، ستقول لنفسها: جدي يتعثر، يتوهم في نفسه القدرة على جمع خيوط قرنين من الزمان وفتلها في حبل واحد ويقول شدّوا! شاخ جدي، سحبته الشيخوخة إلى عاطفية المسنين، يثير الإشفاق ويتوسل الرحمة! لا أتوسل الرحمة يا بنت، لا أتوهم، أريد أن أحكي الحكاية، أريد الدقة. أريد العدل. لا أريد شيئا. «غيرُ مجد في ملّتي واعتقادي/ نوحُ باك ولا ترنم شاد». سأنقشها نقشا على لوحة، أعلقها بباب البيت، أتربّع وراء الباب، أسَده بظهري متدثرا من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي بخيوط ما نكثته من كساء. أغلق عيني وأسقط في البئر. لا يا ولد، لا تنظر في البئر، لا تبحث عن حبل غليظ تشد به الرجل الطيب، غيرُ مجدٍ.

هز الناظر رأسه وأشاح بيده وفزّ إلى الحمّام. خلع ملابسه وفتح الرشاش وترك الماء يندفع بقوة على رأسه وكتفيه وجسده. تصبن وتليف مرتين ثم أنهى حمامه. تنشف ومشط شعره وارتدى قميصا نظيفا مكويا وجلس للكتابة.

كتب:

أبحث عن كتاب يفصّل لي درجات الغضب وأنواعه وأشكاله. أريد أن أعرف هل يحمل الصبي الغاضب غضبا على قدّه، أقصد غضبا لا يزيد مهما كان ظاهرا عن سنوات عمره وتجربته، يتسق مع عوده الأخضر، هش مثله وجديد، أم يشتعل غضبه أكثر لأنه فتى مضطرم بفتوته وقوة الحياة فيه؟ تكملة السؤال ووجهه الآخر: هل يحمل الكبير الغاضب غضبا كبيرا مثله، ممتلئا بما تراكم عليه وفيه لعشرات السنين، داكن اللون، ثقيل القوام كنفط محجوز في باطن الأرض؟ هل يحكم عض الخيل على اللُجُم قانونا واحدا أم قوانين، أعني هل يعض المهر على لجامه كما يعض الحصان؟ وهل غضب النار على وقودها تتساوى إن قل الحطب أو كثر؟